من أوصاف النبي عليه الصلاة والسلام في القرآن[*]

بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

من حق نبينا محمد ﷺ علينا، ونحن أتباعه وأنصاره ومحبوه، أن نوثق صلتنا به ونحكم الروابط التي تربطنا به، ولن يتم لنا ذلك إلا إذا أحسنا التعرف إليه وأدركنا حقيقة دعوته وطبيعة رسالته ومقاصد بعثته عليه الصلاة والسلام. وخير من يعرفنا بذلك كله هو ربنا عز وجل فيما أنزله من كتابه وبينه في قرآنه، فقد وصف سبحانه وتعالى نبيه وعبده عليه الصلاة والسلام بخير الأوصاف ونعته بأحسن النعوت، وليس بعد وصف الله تعالى لنبيه وصف، ولا بعد بيانه بيان.

محمد رسول الله

أكبر أوصاف نبينا محمد عليه الصلاة والسلام في كتاب الله تعالى (القرآن)؛ هو أنه رسول من الله عز وجل إلى عباده، حمله إليهم برسالة فيها – إن هم عملوا بها – خيرهم وسعادتهم في الدنيا، وفلاحهم ونجاتهم في الآخرة.

قال تعالى: ((مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ))، فهو ليس إلها، ولا ملكا، وإنما هو عبد الله ورسوله إلى عباده، هو مجرد بشر يوحى إليه: ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ))، ((قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً))، وهو في هذا ليس بِدْعًا، إنه حلقة في سلسلة رسل الله إلى البشرية في مسار وجودها الطويل على الأرض: ((وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ))، ((قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ)).

وكل رسول إنما يُرْسَل من قومه، لا يأتيهم من خارج ديارهم، إنه يبعث إليهم بعد أن يكون قد ولد بينهم وترعرع في ديارهم ونشأ على أعينهم، وكذلك كانت رسالة محمد ﷺ مِنَّة من الله عز وجل على الأميين العرب بعد ضلال طويل الأمد عاشوا فيه: ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)).

[*] ـ مقال منشور في جريدة البصائر، العدد 619، الإثنين 8 ذو القعدة 1433هـ/ 24 سبتمبر 2012م، ص: 11.

وحق أي رسول من الله إلى عباده؛ أن يُطاع ويُتبَع: ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ))، ولذلك كانت طاعة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام واجبة، ووجوبها على المؤمنين به قبل غيرهم: ((فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)).

وقد قرن سبحانه وتعالى طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام بطاعته عز وجل: ((مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً))، وجعل عز وجل جزاء من يطيعه ويطيع رسوله أن يدخله الجنة، وجزاء من يعصيه ويعصي رسوله أن يكون من أهل النار: ((وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)). أما أولئك الذين يتظاهرون بالإيمان به ثم يصدون عن طاعته واتباع نهجه، فهم منافقون يستحقون الفضح والتشهير، قال سبحانه وتعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً)). وقال: ((وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)).

خاتم النبيين

وميزة محمد عليه الصلاة والسلام التي يختص بها دون غيره من الرسل السابقين عليه؛ أنه آخرهم وخاتمهم، فقد قضى الله عز وجل أن تكون رسالة محمد آخر الرسالات، وأن تكون نبوته خاتمة النبوات، قال تعالى: ((مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)).

وختم النبوة معناه كمال الرسالة وتمام الدين، قال تعالى: ((الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِيناً))، ويترتب على ذلك أن من يعتنق دينا غير الإسلام فهو مردود عليه ولن ينفعه في شيء: ((وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ)).

ولأن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام خاتمة النبوات ورسالته آخر الرسالات؛ فقد ناسب أن تكون رسالة عامة يخاطب بها الجميع عربا كانوا أو عجما، بيضا أو سودا، وهذا ما قرره ربنا عز وجل في قوله: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)).

ومعنى ذلك أن البشرية كلها مدينة لمحمد ﷺ بأن تؤمن به وتعتنق الدين الذي جاء به وتسير على النهج الذي تضمنه الوحي الذي أنزل عليه: ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)). ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)).

داع إلى الله بإذنه

وقد كلف الله عز وجل نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام بأداء مهمة الدعوة في إطار مهمته الكبرى وهي تبليغ الرسالة، فالدعوة أساس التبليغ، وما لم يستجب الناس للدعوة لن يستجيبوا للرسالة: ((وادع إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ))، على أن تكون هذه الدعوة باللين والإحسان والحكمة: ((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ))، ولن تكون الدعوة بالحكمة إلا إذا كانت على بصيرة: ((قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)).

وهذه الدعوة غرضها الأول والأخير هو تبليغ رسالة الله إلى عباده، دون أن يكون للداعي فيها نصيب من حظوظ النفس وأهوائها: ((مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ. وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)). وكما لا ينبغي للرسول أن يجعل من الرسالة وسيلة لتحقيق أهوائه، لا ينبغي له كذلك أن يطوعها لأهواء أتباعه أو أهواء من يريد أن يلتحقوا بدعوته: ((فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)).

شاهد ومبشر ونذير

بين الله عز وجل أنه يبعث الرسل إلى الأمم المختلفة ليقيم عليها الحجة ويغلق أمامها أبواب الاعتذار: ((رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لأَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)). ومحمد عليه الصلاة والسلام بمقتضى نبوته ورسالته

كان شاهدا ومبشرا ونذيرا: ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً)). ((إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)).

فمحمد ﷺ شاهد على أمته بما بلغها من رسالة ربه عز وجل: ((فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً))، وأمته شهيدة على الأمم الأخرى: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)).

والشهادة لا تكون إلا بعد الإنذار والتبشير؛ والإنذار إنما يكون بما أنزله الله من وحي: ((قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ)). ((قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)). ((وأنذر بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)).

ومضمون الإنذار؛ بيان ما يأمر الله عز وجل به عباده أن يفعلوه، وما يناهم عنه أن يقترفوه، ثم تحذيرهم مما أعده للعصاة منهم من عذاب أليم يوم القيامة: ((وأنذر النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)). ((وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)). ((وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ)).

أما التبشير؛ فهو للمستجيبين لدعوة الرسول ﷺ، الذين اختاروا أن يكونوا مؤمنين طائعين: ((وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً))، ((وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)).

رحمة للعالمين

لقد كان سيدنا محمد ﷺ برسالته ودعوته وشهادته وإنذاره وتبشيره، كان بكل ذلك رحمة كبرى ومنة عظمى امتن الله تعالى بها على عباده، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ).

ومظاهر الرحمة في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام وسيرته لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، وأول هذه المظاهر ما تحقق للعرب على يديه من إنقاذ لهم من الضلال

وقيادتهم إلى المجد في الدنيا والسعادة والنجاة في الآخرة: ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)). ((لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)).

وقد أمكن للنبي ﷺ أن يحقق ذلك بفضل ما أدبه الله به من أدب عال وما طبع عليه نفسه من أخلاق عالية وخصال رفيعة، استحق عليه الصلاة والسلام أن يمدحه الله بها في كتابه الكريم في قوله عز من قائل: ((وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ))، ومن عظيم خلقه عليه الصلاة والسلام أنه أرجع الفضل في ذلك إلى ربه عز وجل حين قال: (أدبني ربي فأحسن تأديبي).. وبفضل أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام العالية؛ استطاع أن يجمع الناس من حوله وأن ينال احترام العدو قبل الصديق، وتحصل له في النفوس الهيبة والتوقير، قال تعالى: ((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)).

تلك بعض أوصاف رسول الله ﷺ في كتاب الله عز وجل، وهي أوصاف ترفعه إلى أعلى مقام لأعظم رجل عرفته البشرية عبر تاريخها الطويل ولن تعرف مثله إلى يوم القيامة، هذا الرجل الكريم لن تبلغ إساءة تافه أن تخدش مجرد خدش في كرامته أو أن تهز من هيبته ومكانته. وإن الواجب ليقتضي من المسلمين، بدل أن يشغلوا أنفسهم بالرد على تفاهات التافهين وإساءات المسيئين؛ أن يتعرفوا إلى نبيهم ويدرسوا سيرته ويتبعوا نهجه ويتأسوا به في أقواله وأعماله وما كان عليه في حياته من أخلاق عالية وخصال رفيعة وعبادة متميزة لربه عز وجل. وعندما يفعلون ذلك ستكتشف البشرية كلها حقيقة هذا النبي المكرم والرسول المعظم. وستعرف الإنسانية كلها، عندما يحرص أتباعُه على الاقتداء به، أي خسارة جنتها من عدم اعتناق دينه والانتماء إلى أمته.

من أوصاف النبي عليه الصلاة والسلام في القرآن

بقلم: الدكتور مسعود فلوسي

من حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم علينا، ونحن أتباعه وأنصاره ومحبوه، أن نوثق صلتنا به ونحكم الروابط التي تربطنا به، ولن يتم لنا ذلك إلا إذا أحسنا التعرف إليه وأدركنا حقيقة دعوته وطبيعة رسالته ومقاصد بعثته عليه الصلاة والسلام. وخير من يعرفنا بذلك كله هو ربنا عز وجل فيما أنزله من كتابه وبينه في قرآنه، فقد وصف سبحانه وتعالى نبيه وعبده عليه الصلاة والسلام بخير الأوصاف ونعته بأحسن النعوت، وليس بعد وصف الله تعالى لنبيه وصف، ولا بعد بيانه بيان.

محمد رسول الله

أكبر أوصاف نبينا محمد عليه الصلاة والسلام في كتاب الله تعالى «القرآن»: هو أنه رسول من الله عز وجل إلى عباده، حمله إليهم برسالة فيها - إن هم عملوا بها - خيرهم وسعادتهم في الدنيا، وفلاحهم ونجاتهم في الآخرة.

قال تعالى: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فهو ليس إلها، ولا ملكا، وإنما هو عبد الله ورسوله إلى عباده، هو مجرد بشر يوحى إليه: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»، «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً»، وهو في هذا ليس بدْعًا، إنه حلقة في سلسلة رسل الله إلى البشرية في مسار وجودها الطويل على الأرض: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ»، «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ».

وكل رسول إنما يُرْسَل من قومه، لا يأتيهم من خارج ديارهم، إنه يبعث إليهم بعد أن يكون قد ولد بينهم وترعرع في ديارهم ونشأ على أعينهم، وكذلك كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم مِنَّة من الله عز وجل على الأميين العرب بعد ضلال طويل الأمد عاشوا فيه: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ».

وحق أي رسول من الله إلى عباده؛ أن يُطاع ويُتبَع: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ»، ولذلك كانت طاعة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام واجبة، ووجوبها على المؤمنين به قبل غيرهم: «فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً».

وقد قرن سبحانه وتعالى طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام بطاعته عز وجل: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا»، وجعل عز وجل جزاء من يطيعه ويطيع رسوله أن يدخله الجنة، وجزاء من يعصيه ويعصي رسوله أن يكون من أهل النار: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ». أما أولئك الذين يتظاهرون بالإيمان به ثم يصدون عن طاعته واتباع نهجه، فهم منافقون يستحقون الفضح والتشهير، قال سبحانه وتعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً». وقال: «وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً».

خاتم النبيين

وميزة محمد عليه الصلاة والسلام التي يختص بها دون غيره من الرسل السابقين عليه؛ أنه آخرهم وخاتمهم، فقد قضى الله عز وجل أن تكون رسالة محمد آخر الرسالات، وأن تكون نبوته خاتمة النبوات، قال تعالى: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً».

وختم النبوة معناه كمال الرسالة وتمام الدين، قال تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِيناً»، ويترتب على ذلك أن من يعتنق دينا غير الإسلام فهو مردود عليه ولن ينفعه في شيء: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ».

ولأن نبوة محمد خاتمة النبوات ورسالته آخر الرسالات؛ فقد ناسب أن تكون رسالة عامة يخاطب بها الجميع عربا كانوا أو عجما، بيضا أو سودا، وهذا ما قرره ربنا عز وجل في قوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».

ومعنى ذلك أن البشرية كلها مدينة لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن تؤمن به وتعتنق الدين الذي جاء به وتسير على النهج الذي تضمنه الوحي الذي أنزل عليه: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ». «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ».

داع إلى الله بإذنه

وقد كلف الله عز وجل نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام بأداء مهمة الدعوة في إطار مهمته الكبرى وهي تبليغ الرسالة، فالدعوة أساس التبليغ، وما لم يستجب الناس للدعوة لن يستجيبوا للرسالة: «وادع إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ»، على أن تكون هذه الدعوة باللين والإحسان والحكمة: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»، ولن تكون الدعوة بالحكمة إلا إذا كانت على بصيرة: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ».

وهذه الدعوة غرضها الأول والأخير هو تبليغ رسالة الله إلى عباده، دون أن يكون للداعي فيها نصيب من حظوظ النفس وأهوائها: «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ. وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ». وكما لا ينبغي للرسول أن يجعل من الرسالة وسيلة لتحقيق أهوائه، لا ينبغي له كذلك أن يطوعها لأهواء أتباعه أو أهواء من يريد أن يلتحقوا بدعوته: «فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ».

شاهد ومبشر ونذير

بين الله عز وجل أنه يبعث الرسل إلى الأمم المختلفة ليقيم عليها الحجة ويغلق أمامها أبواب الاعتذار: «رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً». ومحمد عليه الصلاة والسلام بمقتضى نبوته ورسالته كان شاهدا ومبشرا ونذيرا: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً». «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً».

فمحمد صلى الله عليه وسلم شاهد على أمته بما بلغها من رسالة ربه عز وجل: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً»، وأمته شهيدة على الأمم الأخرى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً».

والشهادة لا تكون إلا بعد الإنذار والتبشير؛ والإنذار إنما يكون بما أنزله الله من وحي: «قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ». «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ». «وأنذر بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

ومضمون الإنذار؛ بيان ما يأمر الله عز وجل به عباده أن يفعلوه، وما ينهاهم عنه أن يقترفوه، ثم تحذيرهم مما أعده للعصاة منهم من عذاب أليم يوم القيامة: «وأنذر النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ». «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ». «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ».

أما التبشير: فهو للمستجيبين لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، الذين اختاروا أن يكونوا مؤمنين طائعين: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً». «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

رحمة للعالمين

لقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم برسالته ودعوته وشهادته وإنذاره وتبشيره، كان بكل ذلك رحمة كبرى ومنة عظمى امتن الله تعالى بها على عباده، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ).

ومظاهر الرحمة في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام وسيرته لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، وأول هذه المظاهر ما تحقق للعرب على يديه من إنقاذ لهم من الضلال وقيادتهم إلى المجد في الدنيا والسعادة والنجاة في الآخرة: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ». «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ».

وقد أمكن للنبي صلى الله عليه وسلم أن يحقق ذلك بفضل ما أدبه الله به من أدب عال وما طبع عليه نفسه من أخلاق عالية وخصال رفيعة، استحق عليه الصلاة والسلام أن يمدحه الله بها في كتابه الكريم في قوله عز من قائل: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ»، ومن عظيم خلقه عليه الصلاة والسلام أنه أرجع الفضل في ذلك إلى ربه عز وجل حين قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».. وبفضل أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام العالية؛ استطاع أن يجمع الناس من حوله وأن ينال احترام العدو قبل الصديق، وتحصل له في النفوس الهيبة والتوقير، قال تعالى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ».

وفيما كتب الكاتبون وألف المؤلفون عروض وافية لجوانب الرحمة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته ورسالته، مما لا مجال لسرده في هذا المجال المحدود.

تلك بعض أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب الله عز وجل، وهي أوصاف ترفعه إلى أعلى مقام لأعظم رجل عرفته البشرية عبر تاريخها الطويل ولن تعرف مثله إلى يوم القيامة، هذا الرجل الكريم لن تبلغ إساءة تافه أن تخدش مجرد خدش في كرامته أو أن تهز من هيبته ومكانته، وإن الواجب ليقتضي من المسلمين، بدل أن يشغلوا أنفسهم بالرد على تفاهات التافهين وإساءات المسيئين؛ أن يتعرفوا إلى نبيهم ويدرسوا سيرته ويتبعوا نهجه ويتأسوا به في أقواله وأعماله وما كان عليه في حياته من أخلاق عالية وخصال رفيعة وعبادة متميزة لربه عز وجل، وعندما يفعلون ذلك ستكتشف البشرية كلها حقيقة هذا النبي المكرم والرسول المعظم، وستعرف الإنسانية كلها، عندما يحرص أتباعُه على الاقتداء به، أي خسارة جنتها من عدم اعتناق دينه والانتماء إلى أمته.